لماذا هي خالدة خلود الإنسان ؟

الدكتـــور:
فـخر الديـن قـباوة
جـــامـــعـــة حلـــب « ســـوريا »

سنّة الله - تعالى- في خلقه أن جميع الكائنات تخضع لقانون التطور والفناء ، تنشأ خافتة ضعيفة . فإذا قدّر لها الحياة المديدة ترعرعت وشبت ، ثم شاخت وهرمت وإنحدرت إلى البلى (1) :« كلُّ من عليها فانٍ ويَبقي وَجه رَبّكَ ذُو الجَلالِ والاكرامِ » تلك هي سنّة الكون في ظواهر الوجود وأشكاله وأجناسه وجماعاته وأفراده ، وكذلك عاشت لغات الامم مع التاريخ :نَبَتتْ في ديارها قاصرة ضامرة ،وإستمدت عناصر الحياة في ألسنة أبنائها وعقولهم وممارساتهم لمشاغل العيش ومطامح البقاء ، فاستقام عودها واشتد قِوامها ، حتى كان لها حضارة ما وحضور في جنبات التاريخ . ثم عاجلتها عوامل الضعف والانقراض ، فغابت معالمها وجذورها وصورها ، أو تشعبت في فروع فتية جديدة ، يخالف بعضها بعضًا ، وتعاني كلها سنّة الحياة فهل كانت لغة العرب مع هذا الناموس الحيوي ؟

مراحل الشباب والشيخوخة

لقد حدثنا التاريخ ، بما حمل من آثار مسجلة أو مروية ، أن قديم العربية كان يمثل مراحل طفولة وتدرج ، ظهرت بين القبائل في لهجات يسوقها النمو نحو التطور والانتظام حتى نضجت في أواخر أيام الجاهلية ، وتركزت في أم القرى أصفي ماتكون ، و أرسخ ما يمكن من التأصيل والوحدة ، وأفصح ماتحمله تلك اللهجات من معالم وأقرب إلى خلاصة التجارب والمعاناة . و كانت صورة ذلك كله في شعر رفيع ونشر بديع ، يمثلان قمة النضج والنماء .

وإذ ذاك أراداللّه - سبحانه - لهذه الأمة أن تكون هداية وقيادة وحضارة ، فاختار من أبنائها الرسول الكريم ومن لهجاتها اللسان المبين ، وكان أن اصطفي خيرَ كهولها مروءة وحكمة وصفاء لرسالته ، وأنصعَ بيانها دقة وبلاغة وإعجازاً لقرآنه العظيم .

---

1 - الآيتان 6 - 7 من سورة الرحمن .

لقد امتدت يد الرحمة إلى صميم هذه الأمة وروحها ووجدانها ، ففجر فيها الطاقات الانسانية واللغوية وهيأها للريادة والقيادة والخلود .

ولذا أصبحنا نرى فنون الأدب تتجدد وتتفرع وتتوالد وميادين العلوم تتفتح وتنمو و تمتد لتشمل جميع مرافق الحياة والطاقات اللغوية تزود ذلك كله بالنسغ الفياض لفظاً وتعبيراً ، وفكراً وتصويراً ، وإيقاعاً وعاطفة وخيالاً . وقد صدر عن ذلك دراسات وبحوث غفيرة ، تمثل مختلف العلوم والآداب والفنون والمهن ، باللغة العربية الفصحى المتجددة ، تستوعب المقاصد والغايات الكبرى ، وتعبر عن الدقيق ، والجليل ، والقريب والبعيد ، والظاهر والخفي ، وأعمق مافي الفكر والنفس والشعور والخيال ، على لسان من هو عربي أصيل أو مستعرب دخيل .

ثم توالت عليها عوامل النقض والتهديم بالنكاسات السياسية والاجتماعية والفكرية ، وتعاورتها سلاسل الكوارث من أعدائها وأبنائها قروناً بعد قرون . حتي إذا بلغنا العصر الحديث رأيناها تتشعب في الأقطار العربية ومدنها وقراها كاللهجات المحلية ، لايمسك رمقها إلا خيط من الامل دقيق ،يوشك أن يضمحل ويبلى فتذهب معه أدراج الرياح . ومن ثَمّ تعالت صرخات الاستغاثة والندبة والرثاء ، حتى سمعنا صرخاتَ العربية على لسان حافظ إبراهيم ،وهي تشعر بالقصورو الضعف ، وتحتسب حياتها عند الله - تعالى- لانها تُحتضر وتنعى على أبناء العروبة أنهم لايهبون لانتشالها من براثن الموت ، ويطربون لدعوة المستويلمور وأمثاله إلى استبدال العامية بالفصحى :

رَجعت لنَفسي فاتَّهمتُ حَصاتي ... ونادَيتُ قَومي فاحتسبت حياتي

فيا ويحَكُم ، أبلَى وتَبلىَ مَحاسني ... وفيكُم ، وإن عَزَّ الدّواءُ ، أُساتي

فلا تَكلُوني للزَّمان ، فإنَّني ... أخافُ علَيكم أن تحين وفاتي

أيُطربكُم ، من جانبِ الغربِ ، نَاعبٌ ... ينادي بُوادِي ، في ربيع حياتي ؟

وقد استقبل رجال الاستعمار هذه الصورة المزرية للغة العرب بالبهجة والارتياح : إنها سنة الحياة ونواميس الاحياء ، نشوء وارتقاء ونضج وهرم وفناء . لقد كانوا من قبل يخططون لهذا المصير ، ويمهدون له سبل الدعاية والغواية ، ويعمقون مسارب التجهيل

والتغريب والتعجيم (1)، ولما أدركوا يأس بعض العرب من صحوة لغوية أصيلة شرعوا يروّجون للهجات المحلية والحروف اللاتنية ، لتكون أداء للعلوم والآداب والفنون وأطلقوا كل نشاطهم لتحقيق ذلك ، وجعله واقعا لامفر منه ، لتتشعب العربية وتتوزع هجينة مستعجمة ، على غرار ماكان للغة اللاتنية من فروع في العالم الاروبي .

عودة الروح والشباب

لكن صحوة العرب آنذاك قطعت على أعدائهم السبيل ، ودمرت خططهم وآمالهم ، وبعثت في العربية روح النشاط ، فدبت فيها الحياة من جديد ، وتسلمت زمام مناحي الحياة والبحث والتعبير والتصنيف والتأليف. وبذلك تفجرت موارد ثرة من الترجمة والتعريب والتوليد والاشتقاق والاصطلاح ، غطت كثيرا من الحاجات اللغوية ، وملأت العشرات والمئات والالاف من الكتب العلمية في الفزياء والكيمياء ، والطب والصيدلية ، والرياضيات والهندسة ، والزراعة والصناعة والتجارة ، والشوون العسكرية والمالية والصحية والنفسية والتربوية ... وأصدرت الكثير من الصحف الكثير المجلات والدوريات والنشرات العلمية المتخصصة ، والشعبية العامة لكل مجالات الحياة ، وزودت المواهب الفنية بالتعبير عن الفكر والخيال والمشاعر والرموز والآمال والطموحات البعيدة المنال . حتى إنها استطاعت أن تدخل المحافل الدولية ، وكليات غفيرة من جامعات الدول العربية والاعجمية ،وتصبح لغة البحث العلمي الجامعي .

تمرد على القانون

كانت هذه اليقظة اللغوية ضربة للناموس الذي اعتمده رجال الدراسات المعاصرة فهل توقف التاريخ إزاء لغة العرب ، وتعطلت حركته في مسيرتها ، فلم تنته إلى التشتت والضياع ؟ أم خرجت العربية على القانون اللغوية العنيد ؟

لقد تأزمت لديهم عقدة النقص والشعور بالخيبة ، إذ رأوا أمّ لغاتهم تنزوي في مطاوي التاريخ تراثا أعجم ، وتتجمد في مصنفات محدودة لا يتداولها إلا

1 - الآداب : 162 - 169 المطبعة الجهوية بقسنطينة عام 1994

المتخصصون في اللفظ والدلالة والتركيب والتعقيد ، وتضع بين الحاضر اللغوي وماضيه حجبا من التغير والتبدل،و معاجم خاصة تحل الرموز والغياهب . وفي الوقت نفسه ، يدرس العربي والمستعرب نصوص الجاهلية والاسلام في كل مدرسة ومعهد وجامعة ، وتتقارب وسائل التعبير بين البلدان العربية ، حتى تصبح في الميادين الادبية والعلمية والفنية والسياسة موحدة أو كالموحدة يتداولها الجميع بيسر وطلاقة ، ويدرك مقاصدها وظلالها أبناء كل مدينة وقرية و شارك هؤلاء في شعورهم وخيبتهم بعض الدارسين العرب ، الذين لم يستطعوا إتقان السديد من العربية ، أو لم يفهموا حقائق علوم اللغة ، أو جرفتهم زعازع الشعوبية والاستعجام ، فراحوا ينددون بالواقع اللغوي للعربية ، ويتهمون الفصحي بالتخلف عن ركب الحضارة ، ويصفونها بالافتعال والزيف والتصنيع لبقاء ، ويرون في اللهجات الاقليمية ماهو واقعي أحق بالسيادة والعناية والانتشار .

لكأن لسان حال أولئك وهؤلاء يقول :" إذا كانت جميع اللغات تخضع لقاموس الحياة والتشتت البلى، فلماذا خرجت عليه لغة العرب ؟ أتثبت أمام الاعاصير والنكبات والقرون ، وتتجاوزأمواج الاعجمية والعامية ، لتستعيد نشاطها وحيويتها من جديد وتعيش في دورة نماء ثانية ثم ثالثة ورابعة وخامسة ... وتخلد على الزمن ، فتصير بدعا من الكائنات في هذا الوجود ؟ إنها بذلك تحطم أسطورة النواميس الاجتماعية ، وتتجاهل قيود الطبيعة والتاريخ إنها إذاً واقع غريب ، يطوي في جنباته أسرار بقائه وتميزه . فلماذا تتحدى سنن الحياة ، وتكون لغة متجددة خالدة ؟

أسرار التجدد والخلود

الحق أن لغة العرب لاتخرج ، في تجددها على سنن الحياة . بل هي تعايشها وتحقق مقاصدها وصورها في العالم اللغوي . ذلك أن الله - تعالى -الذي وضع نواميس الكون وسبل إستمرار الوجود ، وصيرورة الكائنات ، اختار لكل رسالة من الرجال من يناسبها في قدراته المادية والمعنوية ، ويستطيع أن يحمل تبعاتها ويبلغها ، وينشرها في الفترة المحدد لها ، ثم أنزلها باللغة التي تناسب تلك الحقبة ، وتنقل إلى الجماعة المبلغة فحوى الرسالة ومقاصدها ، في الحدود المكانية والزمانية الراهنة . ولذا كان في قدماء

الانبياء -عليهم السلام- من عمر مئات السنين ، أو مثل البطولة الجسدية الخارقة ، أو طغت عليه الوداعة البالغة ومارس الاعجاز المادي القاهر . ولذا أيضا عاشت النصوص السماوية الاولى مابعدها في حيزها تبلغ الرسالة ، ولاتجد منقصة في إختصاصها بطبقة من الاحبار والرهبان ، أو في حياتها مترجمة إلى لغات مختلفة ، وغياب نقادها في طبقات المجتمع واللغة الأم التي أنزلت بها.

لقد عرفت هذه الحقيقة جميع الرسالات السماوية ، ماعدا الاسلام ،فقد اختار الله - سبحانه- لهذه الدعوة ، وهي خاتمة الدعوات ومُعدّة للخلود، رسولاً يحمل في شخصه الكريم خصائص الحضور التاريخي الابدي ، ولغةً تتمتع بالقدرات على التوليد والاستمرار ، أمام عوامل التأثير والتغير ، وصعاب الكوارث والتحديات .هذا هو السر الاول .

وقد أيده الله - عز وجل - بسر ثان ، هو نص رباني معجز ، تكفّل بحفظه وخلوده ، واستقطب فيه قدرات العربية الكامنة ، مثّلها أرفع تمثيل، ونفحها مقومات الديمومة والابدية - فهو - أعنى القرآن الكريم - لايختص بطبقة من الكهنوت ترددة وتعظ به وتتوارثه ولا يخاطب قطاعًا من المجتمع معينا يمتاز بالعلم ويدرسه بمعارفه ومنجزاته ، ولا يجتذب رجال الادب وحدهم ليحفظوه ويتأثروا جماله ... بل يواجه الناس جميعا بمختلف قطاعاتهم وأجناسهم ومواطنهم وحقبهم ، ويفرض نفسه عليهم نصا في الدين والخلق والعبادة والسلوك والعمل .فهو لايكون قرآنا إلا باللغة العربية ، ولاتُعرف أحكامه ومقاصده ودقائقه إلا كما أنزل وسجل وثبت .

إنه تُتلى أياته صباح مساء ، وتُحفظ في الصدور والالسنة و الكتب بلفظها وعباراتها وصور أدائها ، أذنًا لفم ولسانًا لقلب :تُردد في الصلوات الخمس يوميا كما أنزلت ، وفي مجالس العلم والادب والقضاء والسياسة والاقتصاد والتربية والتعليم للتسديد والارشاد ، ويتبارى الاطفال والشيوخ والشبان في تلقيها وإتقان ترتيلها وفهمها في كل صقع وزمان ، ويستمد من دقيق تعبيرها العلماء ضوابط العقيدة والعبادات والاخلاق والمعاملات المحلية والدولية ، ويولدون منه أصول علوم العربية في مستويات المعجم والصوت والصرف والأعراب والبلاغة ، ويعتمد أساطين الفكر والمنطق

أساليبها في الحجاج والتفكير والاستدلال والقويم ، ويأتمّ رجالات الأدب بفصاحتها وبيانها في إبداع الاشعار والخطب والرسائل والقصص والمقالات والمخاورات وفنون القول وصور الكلام ،ويبتبع أبناء العلم أسرارها لإصدار البحوث والدراسات والمصنفات، على مدى القرون والاجيال . مما ولد مئات الالاف من الكتب والرسائل والدواين والوثائق ، فى جميع مظاهر الوجود ومرافق الحياة .

مازالت مسيرة الاستمداد والتتبع تعيش في المحافل المحلية والدولية ، والجامعات العربية والاعجمية ،وأوساط الفن والعلم و الاقتصاد والمال والسياسة والقضاء ... حتى لترى الان مئات الكتب وعشرات المعاجم العلمية المتخصصة قد صنفت من مَعينه في مختلف الفنون والعلوم والمهن والمجالات . كل ذلك بالاعتماد على حضور القرآن الكريم ،وقدرات العربية في القياس ، والاشتقاق والتصرف والنحت والتركيب والاشتراك والتضاد ،والمجاز والمصطلح والترجمة والتعريب . ولو أنك تصفحت المصنفات والمجالات والصحف المعاصرة لاستقبلك آلاف المفردات والعبارات المتجددة ، التي استوعبت الفكرَ الحديث المتطور والعواطفَ الانسانية والقومية والشخصية ، والمشاعر الدقيقة والعميقة ، والصور الفنية الأخّاذة ، وانبثت في طيات أخواتها التراثية التليدة ، وتعذر على القارىء أحيانا تمييزها منها فهل هذا خروج على سنن الحياة ؟

نقول : " لا بل هو منها وفيها ، وتنفيذ لارادتها ومراميها . فمن حقائق التاريخ أنّ في الكائنات من كرمه الله - جل وعلا - وسخّره إلى ما في السموات والارض وفي هؤلاء المكرمين من خصه بالنبوة فكان الخليل أو النجي أو المرفوع إلى السماء أو الحبيب المقدم ، وفي بقاع الارض بيتا هو أول ماوضع لناس وخلدت في قلوبهم قدسيته وهواه ، وفي مطاوي السَّنة ليلةٌ هي خير من ألف شهر بل إن في خلايا أكثر الاحيان ماهو راق يتوضع مراكز محددة ، وتكون له السلطة العليا أبدا . واللغة العربية التي اصطفاها الله - تعالى - لكناله ودينه لبست بدعا من الكائنات هذه فقد أغناها قدماء العرب بالاصول المنجبة المولودة ، وزودها بالغنى وعناصر البقاء ، ثم حصنها الله - سبحانه - بهذا الدين الحنيف تخدمه وتوصله إلى الناس ، وتعيش معه

1 - تمهيـــد :

إن البحث في تاريخ علم من العلوم ؛ لدى شعب من الشعوب ، أو استقراء مراحل تطور ذلك العلم عبر حضارة ما ، لهو في الحقيقة ، إعادة تركيب البناء المنطقي، وصياغة الجهاز المفاهيمي لإنسان تلك الحضارة من خلال الوقوف على (العلة) الأولى التي وجهت المسار وحددت الغاية ! ..

فالعرب في جاهليتهم لم يكونوا أمة ذات بال وشأن ، كانوا قوة كامنة موجودة بـ (القوة) في شبه الجزيرة العربية ، التي انزوت في الجنوب بعيدة عن تأثيرات الحضارات السابقة كاليونانية و الفارسية و المصرية و الهندية و الصينية ، بمعنى آخر كان العرب أمة عذراء مازالت تختزن طاقتها الحيوية التي تنتظر الشعلة المفجرة لتخرجها الى عالم الموجودات بالفعل.

الروح العلمية إذن لم تتولد إلا مع أول سورة في غار حراء، إذ يقول الله تعالى: « إقـــراء باســم ربـك الـذي خلـــق » (سورة العلـق ، الآية 1) .

اذ تعتبر سورة (العلق) أو (إقراء) بمثابة نقطة الإنعطاف التي احدثت تغييرا جذريا في المسيرة التاريخية لأمة (أمية) كانت في إطار جغرافي - زمني ، وكأنـها لاعلاقة لها بما يدور حولها في العلم .

ولكن هذا التوجيه الى القراءة القائمة على أساس التوحيد ، ليعد الدعامة الإسنادية الرئيسية لظهور حضارة انسانية جديدة في خصائصها وفي غايتها ..

و اللغة التي نزل بها القرآن هي (الوعاء) الذي حددت فيه صيغة العقل العربي المسلم ، اذ العربية هي اللغة الجديدة و التي من خلالها ستحدد آليات الفكر الحضاري الجديد ..

اذن الإطار الفكري الجديد هو (اللغة العربية) التي كانت بل ومازالت تمتلك خاصية القدرة الإبداعية الواسعة ، وهكذا أضحى التفكير الحضاري الجديد يتم داخل هذا الإطار ، وبواسطة هذه اللغة ذاتها ، ومن الدلالات الواضحة على أن اللغة العربية أسهمت في تحديد نظرة الإنسان المسلم الى الكون وتصوره له ككل وكأجزاء، هي

- أي الدلالة - ذلك العمل العلمي المنظم الذي تم في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ، المتمثل في جمع القرآن الكريم وتدوينه ، وهذا من أجل حفظه من اختلاط القراءات الصحيحة و الشاذة ببعضها ودخول اللحن فيه ، فاللغة هي الأصل أو القاعدة المرجعية التي يعتمدها المفسر أو الفقيه أو المحدث أو كاتب السيرة في فهم النص واستخراج الدليل واستنباط الحكم ..

هذا العمل التاريخي ، نقل اللغة العربية من مستوى (الفطرة) و(الطبع) إلى مستوى (الكسب) ، أي الإنتقال بها من مستوى (السماع) و (المشافهة) الى مستوى (الفهم) و (الكتابة)، هكذا صار لنا محيط اجتماعي - ثقافي مركز اهتمامه المستقطب لكافة أنواع الأبحاث العلمية واحد ، هو (النص) القرآني العربي المبين ..

و الذي في اطاره حدد (المفهوم) و (المنهج) الذي ينبني عليهما (العلم).

من زاوية أخرى وبمعني مقابل ، التفكير لا يكون إلا من خلال منظومة مرجعية تتشكل إحداثياتها الأساسية سلفا من محددات هذه الثقافة القائمة على منظومة القيم العقدية التي أعلنت العهد الجديد للقراءة العربية .

من هنا نطرح سؤالنا الذي هو مفتاح المجال الدراسي الذي نريد تناوله في هذا السياق :

ما المبررات العلمية لدراسة موضوع (الصوت) في اللغة العربية اليوم ؟ خاصة إذا علمنا أن علماء العرب القدماء قد تناولوا هذا الجانب ، أو هذا المستوى من البناء اللغوي ، ولكن إلى أي مدى وصلوا ؟

الجواب ، معظم دراسة القدامى كانت منصبة على زاوية واحدة ، وهي الاصوات: مخارجها، صفاتها ، و الحروف : مخارجها وصيفاتها وطبيعتها ...

ولكن ، ألم تكن الدراسة الصوتية في اللغة العربية من الناحية الوظيفية دالة على رؤية (معرفية) جديدة لمفهوم اللغةالعربية وماهيتها وأصل نشأتها ؟

ألم تكن المسألة ذات علاقة بالمجال المعرفي الجديد للحضارة العربية الإسلامية ؟ هذا مانريد الإجابة عنه في هذه العجالة .

2 - الموضــوع :

2 - 1 **المحـاكـاة الطـبيعية** : إن العلم يدرس الظواهر المتنوعـة في الكون ، ليكشف قوانينها و الروابط المنطقيـة بين السبب و الحادث ليصل الى علاقة ثابتة تقوم عليها ظواهر الطبيعة (القانون) .

إذاً ، كـيف يمكن لنا دراسـة الصـوت - اللغـوي العـربي ؟ إذا أردنا مـعـرفـة نشـأة اللغة العربية ، وبأي سلاح علمي يمكن لنا إعداده كي ندرس اللغة العربية على مستوى الأطروحات الفلسفية : (المتى) و (الأين) و (الكـيـف) و(الجوهـر) ؟ ...

يقول باشلار في كتابه الفكر العلمي الجديد :

« ويبـدو لنا أن من الأدق أن نقـول إن كل انسـان يجـهـد للتحلي بثـقـافـة علمـيـة يسـتند لا إلى ميـتـافـيزيـاء ، بل الى نوعين من الميـتـافـيـزيـاء (...) يرتبـطان بهـدوء في الفكر العلمي الحديث بالمصطلحين المعروفين في الفلسفة المدرسية باسم المذهب العقلي والمذهب الواقعي . ». (1)

وعلى هذا الاسـاس ، سنتبـع في دراسـتنا هذه منهج (العلم) و (التـاريخ) ، فـالمنهج العلمي نسـتعـمله للتـجريد والبحث عن القـوانين ، وعن الدقة و الضـبط في الأشيـاء التي يمكن قـيـاسـهـا ، أمـا المنهج التـاريخي ، نحـاول بواسطتـه إعطاء وصف متكامل لموضـوع الدراسة و ليس معـالجة التـتابع الخطي لتطور الظـاهرة ، وعليه سنضع موضوع الدرس الصوتي العربي في حقل الدراسات الأنثربولوجية الثقافية .

لو ننظر الى اللغـة العـربيـة في واقـعـهـا الطـبـيـعـي ، المتـمـثـل في ذلك المحيط الجغرافي المنعزل عن بقية العالم ، نجد أن ذلك الإنسان العربي كان يعيش حالة الرتابة و الهدوء ، بل حتى سلوكه كان على نمط واحد ، ولغتـه كانت تأخذ مادتها اللغوية من المظاهر الطبيـعـيـة البـسـيطة مـثل : الرمل ، الشـمـس ، القـمـر ، السـمـاء ، الأرض ، النجوم، النخيـل ، الناقة ، الذئب ، الأفعى ، الريم ، الجبـل ، الفرس ... إلخ ، وكذلك

---

1 - غاستون باشلار: الفكر العلمي الجديد ، ترجمة د. عادل العـوا ، تقديم أ . جيلالي اليابس ، طبعـة الأنيس ، سلسلة العلوم الإنسانية ، تحت إشراف علي الكنز ، موفم للنشر 1990 ، ص.1

من الواقع الإجتماعي المتمثل في : القبيلة ، المرأة ، الحياض ، الخيمة ، العهد ، الحرب، السيف ، الرمح ، القوس و الأطلال ... إلخ ، كل هذا كان المادة الخام للغة العربية الجاهلية ، فهذه الثقافة الصحراوية ولدت زمنًا ، ثقافيا ثابتا لا شعوريا ، حركته تراوحية (حركة اعتماد) (1) - أي حركة الشيء في موضعه (حركة التوتر الكامنة في الجسم المعد للإطلاق) - لا (حركة نقلة) (2) فاعلة مغيرّة ، تنقله من مكان الى آخر ، وبالتالي تتغير دلالة (الزمن) ، لأن (الحركة) دالة على (التفاعل) وعلى (التغير) من نقطة (أ) الى النقطة (ب) ، ومن هنا جاء مفهوم (الزمن) الذي هو وليد (الحركة) ومفهوم (المكان) الذي هو وليد الهندسة الحركية للأشياء .

هكذا غدت المسألة اللغوية - العربية ، من مباحث الفيزياء المكانية و الزمانية ، ولكن هل نتعامل معها كـ(شيء) ، أم نتعامل معها كـ (كائن) حي ؟ خاصة إذا علمنا أن اللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي لم تتغير خصائصها وقواعدها على المستوى السطحي أو على المستوى العميق لبنيتها .

فهل هذا معناه أن هذه اللغة الثابتة غير قادرة على الخلق و الإبداع و التطور ؟ أم العكس تملك خاصية التوليد الإبداعي ولها القدرة على مسايرة التقدم الفكري والعلمي للإنسان المعاصر ؟ ..

إن عنصر (الحركة) و (السكون) هما الظاهرتان الطبيعيتان اللتان سيطرتا على عقل الشاعر الجاهلي ونفسه (3) ، ولهذا لم يخرج عن إطارهما في جميع إصداراته الشعرية ، بالإضافة الى عنصر (الصوت) و(السمع) (4) ، إذكان الشاعر الجاهلي يستعمل حاسة السمع لمحاكاة أصوات الطبيعة وحركاتها بواسطة

---

1 - محمد عابد الجابري : تكوين العقل العربي ، دار الطليعة، بيروت ، ط2 ، مايو 1985 ، ص82 .

2 - عابد الجابري ، المرجع السابق .

3 - الأخضر عيكوس : الأبعاد الفنية للصورة التشبيهية في الشعرالجاهلي - مجلة جامعة قسنطينة للعلوم الإنسانية ،ع 5 ، 1994 ، ص 7 .

4 - الأخضر عيكوس ، المرجع السابق ، ص 8 .

اللغة ، وهذه المحاكاة كي تكون صحيحة تتطلب من هذا الإنسان إدراك النسب المتقاربة في الحركة الصوتية بين الأشياء المتحركة في الطبيعة ، ولذا استطاع الشاعر العربي أن يبدع كلاما يعتمد على (الوزن) و (القافية) و (الإقاع) ، خاصة إذا علمنا أن (الوزن) هو صورة التفعيلة التي نهتدي بها الى معرفة البحر ، اما (الإيقاع) فهو (الجرس) الموسيقي وحركة الأصوات الداخلية الناتجة عن النبر الخاص بالمقاطع الصوتية للكلمات ، بل هو - أي الإيقاع - (الروح) التي يحملها ذلك الهيكل ! ..

ولما جاء القرآن أحداث (حركة نقلة) لهذا الإنسان العربي الذي ما زال على (الفطرة) ، وغير خصائصه التفسية و العقلية من خلال مخاطبته بلغته العربية ، معتمدا في ذلك استعمال تلك الأدوات و الآلات الصوتية التي ألفها سمع الشاعر الجاهلي المتمثلة في (الإيقاع) أو لنقل (الجرس) و (الوزن) و (القافية) ، واستعمال الصور و المشاهد (المتحركة) و (الساكنة) بل و (الألوان) ، خاصة في النزول المكي ..

ربما الآن بدأت الخيوط الأولى للمسألة تتضح ، وهل هذه هي الأسباب التي دفعت بالخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 175 هـ / 790 م)[1] إلى أن يقلب هرم اللغة العربية ؟ وهل هو السبب كذلك الذي أدى به الى دراسة الشعر العربي واكتشاف أوزانه وبجوره قبل أن يضع كتابه (العين) ؟

لأول وهلة ، يظهر لنا الخليل وكأنه مازال يتحرك في نفس المجال الزمني والذوقي الذي كان يحياه الإنسان الجاهلي ، فعنصرا (الصوت) و (السمع) الفطريان مكناه من استخراج الدوائر العروضية للشعر العربي ، بل وعنصرا (الحركة)

---

1 - الخليل بن أحمد الفراهيدي (أبو عبد الرحمان -الفراهيدي الأزدي ، ت 175 هـ / 790 م) من أشهر علماء اللغة العربية ولد بالبصرة حوالي سنة 100 هـ / 718 م ، وأخذ علم العربية عن علماء كثيرين كان أهمهم بالنسبة إليه أبا عمرو بن العلاء ، يعد الخليل أول من سلك مناهج جديدة في علم العربية، ألف كتاب « العين » المرتب على مخارج الحروف من العين إلى الياء .

أنظر حوله : الزبدي : طبقات النحويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،ط1 ،القاهرة 1954، ص 43 - 47 ؛ و القفطي : إنباه الرواة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ط1 . القاهرة 1 / 341 - 347 ، و السيوطي : بغية الوعاة تحقي محمد أبو الفضل ابراهيم . ط 1 . القاهرة 1964 - 1965 . 1 / 557 - 560 .

و(السكون) هما الأساس في هذا الإكتشاف ..

إن الخليل ، تناول اللغة بالدرس من القاعدة ، وليس من قمة الهرم ، كما فعل من سبقه من علماء اللغة ، فبدأ الدرس اللغوي بما يجب أن يبدأ به ، بدأه بدراسة الأصوات (الحروف) التي تتألف منها مفردات اللغة ، فمن الناحية المنهجية (الميتودولوجية) ، الواقع الإجرائي للغة يفرض هذا الأساس كمنطق قاعدي ،لأن الجانب المادي من اللغة هو المدرك بالدرجة الأولى من قبل الحواس وخاصة (السمع) ، الذي يستقبل (الصوت) المسموع ، أما من الناحية المعروفة (الأبيستيمولوجية) ألا يدل هذا على وجود نظرية معرفية قائمة بذاتها ؟

القرأن كان يحفظه الناس عن طريق (التواتر) السمعي في صدورهم ، فهل هو - القرآن - المحدد لآليات التعامل مع اللغة العربية ؟ ولماذا القرآن الكريم يسبق ذكر (السمع) على (البصر)، كحواس ونوافذ لعقل الإنسان على العالم الخارجي المحس ؟

هل هذا مجاراة لطبيعة ذلك العربي الجاهلي الذي يتذوق الكلمات ؟ أم أن المسألة ، مسألة نظام معرفي جديد ؟

البعض قد يتساءل ، ماعلاقة هذا بمسألة الدرس الصوتي اللغوي العربي ؟ ونحن نقول ما هو ذلك الشيء الذي دفع بالخليل ليشك في صحة النظام الأبجدي و الألفبائي الذي سبقه من قبله بوضعهما ؟

يتبين مما سبق ذكره ، أن الخليل هو من الأوائل الذين أدركوا أن أصل اللغة هو محاكاة للطبيعة ، بمعنى أن أول أمرها المماثلة لأصوات المسموعات ، ثم تطورت ، حتى تباعد ما بين مدلولاتها الحسية الأولى ومدلولاتها المعنوية التي آلت إليها ، كدوي الريح وحنين الرعد وخرير الماء وشحيح الحمار ونعيق الغراب وصهيل الفرس ونزيب الضبي ونحو ذلك ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد (1).

فهذه النظرية تبسط أولا من خلال مجهر الزمانية في البحث عن نقطة التولد في أصل النشأة (2).

---

1 - ابن جني (أبو الفتح عثمان) : الخصائص ، تحقيق محمد علي النجار . ط2 . دار الهدى للطباعة والنشر ، بيروت - (عن مطبعة دار الكتب المصرية - 1952) - 1 / 46 - 47 .

2 - د. عبد السلام المسري : التفكير اللساني في الحضارة العربية ، الدار العربية للكتاب ليبيا - تونس . 1981 . ص 79 .

وينزل الخليل قضية المحاكاة في سياق التماثل الحاصل بين الألفاظ و المعاني على أساس « المضاهاة » بين أجراس الحروف و اصوات الأفعال التي تعبر تلك الأجراس عنها (1).. ، وهو مبدأ يطلق عليه لفظ الإتفاق و التناسب (2). ، وحينئذ تغدو قضية التماثل مظهرا دلاليا في ارتباط الدوال بالمدلولات ، ولعله الأول القائل بهذا الرأي بين علماء العربية ، ولم يسبقه غيره إليه (3).

ومن الأمثلة التي استشهد بها الفراهيدي على وجود العلاقة الطبيعة بين اللفظ ومدلوله ، قوله : « صر الجندب صريرا وصرصر الأخطب صرصرة ، كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً ، وترهموا في صوت الأخطب ترجيعا . » (4).

وقال : « يقولون : صل اللجام صليلا ، فلو حكيت ذلك قلت : صلّ تمد اللام وتثقلها ، وقد خففتها من الصلصلة ، وهما جميعا صوت اللجام ، فالتثقيل مدّ ، و التضعيف ترجيع » (5).

فقد أدرك الخليل أن الإختلاف بين اللفظين الدال أحدهما على صوت الجندب والدال ثانيهما على صوت الأخطب ، يرجع الى الإختلاف بين طبيعتي الصوتين ، وليس هذا الصوت الممتدّ في (صرّ) بالتشديد إلا استشعارا بما في صوت الجندب من استطالة وامتداد ، وليس الصوت المقطع في (صرصر) بالتضعيف الا حكاية لما في صوت الأخطب من تقطيع ، وهذا التقطيع متمثل في هذا اللفظ المرجع المكون من مقطعين وهما : صر صر ، ومثل هذا في صل وصلصل في صوت اللجام ، وهذا يظهر المحاكاة سواء ظهر الإنسجام كليا بين الدال و المدلول أو اقتصر على جزء من مركبات الدال فحسب : صوتما كان أو مقطعا .

---

1 - ابن جني : الخصائص . 1 / 65 .

2 - الرازي (فخر الدين) : التفسير الكبير : مفاتيح الغيب - المطبعة العربية ، الدارالبهية المصرية . ط1 - 1938 . 1 / 22 .

3 - المخزومي المهدي : الخليل بن أحمد الفراهيدي أعماله ومنهجه - بيروت - لبنان- دار الرائد العربي ط.2 . 1406هـ / 1986 ، ص 86 .

4 - ابن الجني : الخصائص . 2 / 152 .

5 - الأزهري : تهذيب اللغة - المؤسسة العامة للتأليف و الترجمة - دار الطباعة القومية . 1 / 49

فالمنطق عند الخليل هو فكرة « المضاهاة » ثم تتركز نظريته على مايسمى بـ(إمساس الألفاظ أشباه المعاني » (1). ، أو سوق الحروف على سمت المعنى المقصود (2)، بمعنى مساوقة الصيغ للمعاني(3)، ومقيما مبدأ التعديل والأحتذاء (4)، ثم فكرة تقارب الحروف بتقارب المعاني .

وعليه يمكن تحليل نظرية المحاكاة هذه عند الخليل بن أحمد الى جملة من المراتب:

أولها : مرتبة المحاكاة الصوتية وتتمثل في ملاحظة تسمية الأشياء بأصواتها ، كالجندب لصوته و الأخطب لصوته.

ثانيها : مرتبة المحاكاة البنائية ،وذلك بأن يصور هيكل اللفظ جملة دلالته أو أن يعكس بناؤه مراحل معناه ، فيأتي اللفظ حاكيا مدلوله بمجرد قالبه اللغوي المحس ، مما توالت فيه الحركات للدلالة على الحركة و الإضطراب ، كالغليان و الطوفان والجولان، حيث يكون التقلب و التحرك و الإضطراب .

وفي هذه المرتبة من المحاكاة البنائية حاول الفراهيدي تحليل الصيغ الصرفية المزيدة للغوص في سر التآلف بين بناء المسموع اللغوي ومدلوله، ومن هذا دلالة مازاد على البناء زاد على المعنى في إشارته الى الفرق بين نون التوكيد الخفيفة و الثقيلة عندما قال : « إنهما للتوكيد ، كما التي تكون فصلا ، فاذا جئت بالخفيفة فأنت مؤكد، وإذا جئت بالثقيلة فأنت أشد توكيدا » (5).

أما المرتبة الثالثة من مراتب المحاكاة هي : ما يطلق عليه مصطلح (المحاكاة التعاملية) (6) .

---

1 - ابن جني : الخصائص 2 / 152 .
2 - ابن جني : المرجع السابق ، ص 162 .
3 - المرجع السابق ، ص 155 .
4 - المرجع السابق ، ص 157 .
5 - سيبويه (بشر عمرو بن عثمان) : الكتاب ، نشر وتحقيق عبد السلام محمد هارون . دار القلم ، القاهرة 1966 . 1 / 149 .
6 - ابن جني : الخصائص 2 / 153 - 154 .

وتقوم على ضرب من تعامل دلالة الأصوات الفيزيائية ودلالة الهيكل الوزني لقوالب الألفاظ ، ومن نماذجها : فعل صر الذي يطلق على صوت الجندب لما أستشعر فيه من مد واستطالة ، وفعل صرصر الذي خص به صوت البازي للتقطيع الذي يلهج به صوته المستطيل . (1)

وآخر مراتب المحاكاة مايتنزل على مستوى التركيب السياقي ، وهو عبارة عن تجاوز ظاهرة المحاكاة منزلة الألفاظ مجردة الى الألفاظ عندما تتفاعل في صلب الخطاب لبناء التركيب الإبلاغي أو الإنشائي ، فهو إذن خروج من مستوى جدول الأختيار الى جدول التوزيع خاصة في عملية الإشتقاق المؤسسة على عملية التقليب الجذري الرياضية المحض .

الخليل بعمله هذا ، استطاع أن يعطي نظريته هذه حسية المنشأ و الممارسة بعدها اللساني من خلال ربط مستوى الأبنية الحسية للكلام بمستوى البناء الدلالي في اللغة ، وهنا نصل الى مبحث في غاية الأهمية وهو الجانب المعرفي من النظرية الخليلية .

2 - 2 البناء المعرفي الخليلي :

يعد الخليل بعمله الإبداعي أول ممثل لنظرية التشريع الوضعي للغة ، ويتمثل ذلك في ابتداعه لأصوات اللين القصيرة ، وهي : (الحركات) رموزا تتميز بها وليست الحركات إلا أصواتا لينة لا تختلف عن الألف و الواو و الياء ، إلا من حيث الكم ، فالفتحة بعض الألف ، و الكسرة بعض الياء ، وقد قال الخليل في هذا :

« الفتحة من الألف و الكسرة من الياء و الضمة من الواو » (2)

وفي هذا المقام قد ربط - الخليل - الخط بالصوت ، أو قد حاول ذلك إذ من خصوصيات الكتابة العربية أن تنفصل فيها عناصر اللفظ وأصوله وهيآته (الحروف والوزن) عن علامات المعنى ومحدداته (الحركات) ، وهو بهذه العملية الإجرائية قام بـ (الوصل) بين (المبني) و (المعنى) ، لأن ادرك لولا الدلالة الذاتية للفظ في

---

1 - ابن جني ، المرجع السابق ، ص 152

2 - سيبويه : الكتاب .ج2 - طبع بولاق - القاهرة . 2 / 315 .

مستواه الصوتي على معناه ، لكان ترجيح معنى لفظ بازاء معاني أخرى ترجيحا بلا مرجح ، وهو محال(1)، فوضع (الحركات) على (الحروف) معناه إعطاؤها قالبا منطقيا ، ولكن الإستفادة من صيغة هذا القالب المعقلن تتم بـ (النطق) وهذا يدخل في باب العلوم المشاهدة - أي المعارف الحسّية - ، لأن الخليل يرى أن المستوى الصوتي الذي هو الأصل و الأساس و السند والقاعدة الذي يتم فوقه إرساء البناء اللغوي ، لا مجال للإعتباطية فيه بل تغلب عليه القصدية و الوظيفة .

إذا ربط الأصل اللغوي بالموضع الحسي هو إشارة الى المعنى المقصود في إطار البيئة العربية الجاهلية قبل الإختلاط ، وبهذاهل كان عمل الخليل يريد تأكيد الطبيعة الحسية للغة العربية ؟ ... ولقد قال أحد المعاصرين أن « الكلمة التي لايمكن إرجاعها الى صورة صوتية مقتبسة من الطبيعة ، وفي حدود الصناعة العربية ، لهي كلمة دخيلة على العربية . (2) وهل هذا يعني أن الخليل هو واضع أسس المعرفة الواقعية الحسية ؟ وبالتالي وضع المذهب الواقعي للتفكير ؟ وبالتالي يكون المنطق في خدمة الواقع وليس العكس ! .

إذن الخليل (وصل) بين مذهبين مختلفين في نشأة اللغة فهو عندما يدلل على وجود العلاقة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله ، فانه من أنصار النظرية الطبيعية ، وعندما يبدع الحركات فانه من أنصار مذهب الوضع في اللغة وبالتالي تنتفي المناسبة الطبيعية بين اللفظ ومدلوله ، ولكن هذا تعارض ظاهري ، فالخليل وجد أن الصوت هو أصل الحرف و الحرف أصل اللفظ ، واللفظ أصل الكلام ، وبما أن هناك مستوى من المسموع يدرك سماعا ولا يكتب ابتكر له رموزا دالة عليه ليعرف المتكلم أحوال اللفظ ومقاماته

إذن البناء المعرفي الخليلي للصوت العربي كالآتي :

---

1 - السيوطي (جلال الدين عبد الرحمان أبو بكر) تحقيق محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، دار إحياء الكتب العربية ، دون تاريخ . 1 / 16 .

2 - محمد عابد الجابري : تكينالعقل العربي ، ص 86 .

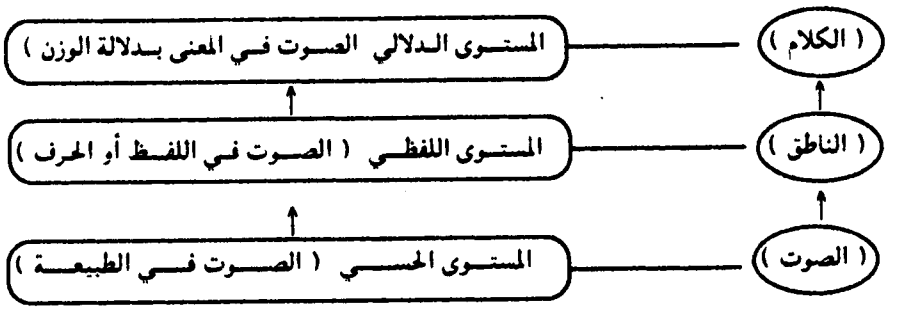

كأن الخليل كان يؤسس لعلم الفيزياء الصوتية عندما كان يختبر الأصوات على مستوى علاقة اللفظ بالمعنى ، لأنه جعل من مفهومه لفيزيائية الصوت ، ولتصنيفه لمخارج الحروف على أساس مناطق النطق الفيزيولوجية دعامة لعلم فقه اللغة .

ومن هنا تأتي مسألة المنهج الذي اتبعه الخليل ليؤكد صحة رأيه ، فهل كان منهجه معياريا أم كان موضوعيا ؟

2 - 3. الإطار المنهجي :

التفكير العلمي يبحث في (الكم) و (العلاقة) و (الحالة) ، ومن ثمة يستطيع بناء وإنشاء الحوادث الطبيعية - في أطر عقلية بمشاركة المعطيات الحسية وبلغة الكم .

وعليه سنرى أي المنهجين اتبع الخليل في دراسته الصوتية للغة المنهج المعياري ؟ أم النهج الموضوعي ؟

ولنستطيع الكشف عن ذلك لا بد من النظر في الكيفية و الوسيبة اللتين استعملهما صاحبنا اللفراهيدي !

أ - **على مستوى الكيفية** : لقد أقام الخليل قطيعة معرفية بينه وبين من سبقوه في دراسة اللغة ، إذ خالف الترتيب الهجائي أو الألفبائي الذي وضعه نصرين عاصم (1) ورتب مواد معجمة العين ترتيبا مخرجيا (صوتيا) ، ولم يستطيع الوصول الى هذا النظام المعجمي الجديد إلا باستعماله وسائل جديدة فماهي ؟

ب - **إذا على مستوى الوسيلة** :

أ - (الحركة) و (السكون) كمفهومين فزيائيين ، استعملهما الخليل لدراسة الشعر و الموسيقى وبعد ذلك اللغة العربية ، إذ استطاع أن يكتشف (الإيقاع) و(النغم) و (الوزن) في الشعر بل وفي النثر أيضا وإلا كيف يمكن التمييز بين الأسماء المشتقة عن طريق الإصاتة لولم تكن لها أوزانا معلومة أساسها الحركة والسكون مثل : « فاعل » (الألف) للفعل كقاتل ، و « مفعول » (الواو) للإنفعال ك « مروج » ، و « فعيل (الياء) للفعل ككريم أو الإنفعال ك «قتيل» و «فعّال » «الشد و الألف » للفعل مع الكثرة ك « سباق » ، و « أفعل » (الهمزة) للتفضيل كأحسن وغير ذلك ..

وهكذا فالصورة الصوتية هي التي تعطي للمشتقات دلالتها المنطقية ، وهذا دلالة أخرى على اثبات العلاقة بين الصوت و المعنى .

2 - (**الطبيعة الصحراوية مخبر التجربة**): ماهو معروف عن الخليل أنه خرج الى بادية الأعراب حيث الفصاحة والسلامة من اللحن ، فاختبر كلامهم ، فوجده طليقا بين بيانا تاما ، فاستطاع ادراك مبتدأ الكلام ومنتهاه ، وتذوق الحروف وأدرك مخارجها ، وهو بذلك يدرس اللغة دراسة إجرائية - ميدانية ، وهذا تكريس آخر لطابع اللغة الحسي اللاتاريخي ، وبهذا تعلو العربية على (الزمن) ..

3 - **الإحصاء والكم** : نعلم جيدا أن الخليل أحصى كلام العرب على أساس حروف الهجاء التسعة و العشرين ، فوجدها - لغة العرب - ثنائية أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية ، أما التكميم الرياضي نجده عندما يقول : « أعلم أن الكلمة الثنائية المضاعفة تتصرف على وجهين ، نحو : قد ودق ، وشد ودش ، و الكلمة الثلاثية تتصرف على ستة أوجه تسمى مسدوسة ، وهي نحو : ضرب ، رضب ، ربض ، ضبر ، برض . والكلمة الرباعية تتصرف على أربعة وعشرين وجها ، وبذلك أن حروفها وهي

---

1 - أنظر : إبراهيم جمعة : قصة الكتابة العربية ، القاهرة . دار المعارف 1947 ، ص 50 ، وكذلك عدنان الخطيب : المعجم العربي بين الماضي و الحاضر ، القاهرة ، مطبعة النهضة الجديدة 1967 ص 22 - 25 ..

أربعة أحرف ضربت في وجوه الثلاثي الصحيح ، وهي ستة ، فصارت أربعة وعشرين وجها ، يكتب مستعملها ويلغى مهملها (...) و الكلمة الخماسية تتصرف على مئة وعشرين وجها ، وذلك أن حروفها ، وهي خمسة أحرف ، ضربت في وجوه الرباعي ، وهي أربعة وعشرين وجها فصارت مئة وعشرين وجها ، يستعمل أقله ، ويلغى أكثره » (1) .

4 - **التصنيف و الترميز**: عندما أحصي الخليل كلام العرب في (الثنائي) و (الثلاثي) و (الرباعي) و(الخماسي) ،إنما قام في واقع الأمر بتصنيف مادة معجمه اللغوية الى فئات ، وذلك بأن يبدأ بالثنائي ثم اللهوي ثم الشجري ثم الأسلي والنطعي ؛ فاللقوي ، الذليقي وفي الأخير الهوائي .

ولتوضيح العملية أكثر نضع هذا رسم التخطيطي للعين :

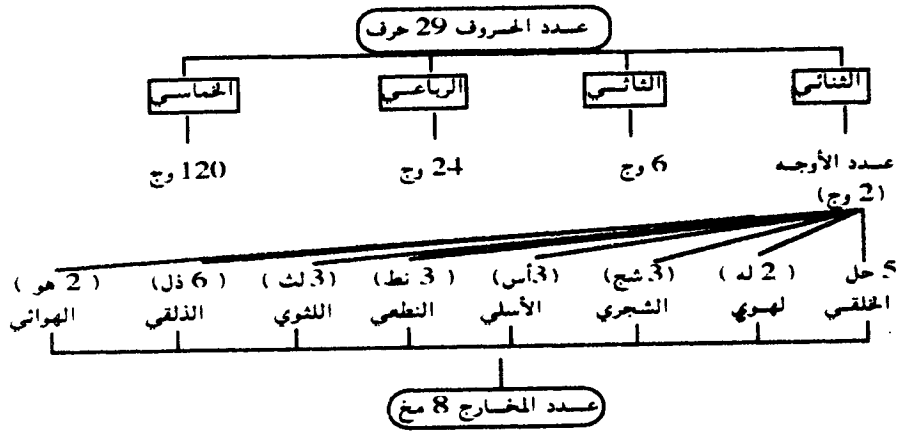

- أما الترميز : فقد ابتدعه عندما وضع للحركات اللينة رموزا وهي

(الفتحة)	و(الضمة)	و(الكسرة)
↓	↓	↓
(-)	(و)	(/)

---

1 - الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب العين ، تحقيق عبد الله الدرويش ، القسم الأول ط1 ، مطبعة العاني - بغداد 1967 - 1 / 10 .

وكل رموز من هذه الرموز يقابله حرف من الحروف الثلاثة : الألف و الواو والياء

(-) ——————> الألـــف (ا)

(و) ——————> الـــواو (و)

(/) ——————> اليـــاء (ي)

بل هذه الحركات (حركات اللين القصيرة) تدل على مفهوم موسيقى لطبيعة الصوت ؛ فالنغمة الموسيقية أساسية إذن في اللغة العربية لأنها تعطي طابقا متناغما، وهذه (الرموز) كأنها مفاتيح النوتة التي يستعملها عازف الجوق الموسيقي .

وفي الأخير أليس ما قام به الخليل يعد منهجا موضوعيا لأنه جعل الطبيعة والجهاز النطقي (الحواس) و الأذن (السمع) مخبرا واقعيا لإرساء منهجه الإجرائي في دراسة الصوت العربي ! ..وعملية التكميم و التصنيف و الترميز ، أليست أدوات البحث الأكاديمي الذي يسعى ليجعل من الظاهرة في آخر مستويات تحليلها ترقى الى التقنين و الدقة الموضوعية و العلمية المتناهية !..

إن الإختبار الحسي و الصياغة العقلية للخليل أو صلاه الى اكتشاف نظام صوتي خاص ومفردات وتراكيب ذات أبنية خاصة فاذا تغيرت في هيكلها صارت لغة أخرى ولذا يقول في موضع من كتابه عند الحديث عن الحروف الذليقة والشفوية في الرباعي و الخماسي لتمييز الصحيح في كلام العرب من الدخيل فيه : هي « محدثة مبتدعة (...) لأنك لست واجدا من يسمع في كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلق أو الشفوية واحد أو إثنان أو أكثر » (1).

1 - الخليل بن أحمد : كتاب العين ، 1 / 58 .

الخاتمـــة

بـــعد هـــذه الجولــة فـي عـالم الخلـيـل ودراسته المـمتعة حـول الصـوت العـربي نخلــص الى مايلــي :

1 - إن الخليل كشف عن بناء معرفي جديد مستواه الأفقي - حسي بينما مستواه الرأسي - عقلي محض . وهو بهذا يؤسس لنظرية الإنتزاع المعرفية ، التي تستعمل البناء الحسي كقاعدة للوصول الى البناء العقلي في إطار التداخل الوظيفي .

2 - الإطار المنهجي للخليل ، كان إستقرائيا محضا ، تصاعديا يبدأ بالجزء ليصل الى البناء الكلي العام ، ولذا فهو بنائي المنهج أيضا .

3 - إن فهم الخليل للموسيقى واكتشافه للعلاقة بين (الوزن) و (الإيقاع) وكذلك إستعماله (الحركة) و(السكون) كقاعدة عملية في دراسة الصوت ، جعله يتصدر القائمة في تاريخ علم الفيزياء الحركية للأشياء ، و الفيزياء الصوتية على الخصوص ، إذ الان معظم التجارب المخبرية بأنظمة الرتاب (الحاسوب) تعتمد الحركة (ا) و السكون (o) كآليتين لوضع نظام هرموني (نغمي) للموسيقى الكلاسيكية المعروفة عن طريق الأجهزة الحاسوبية .

4 - إن العمل الخليلي وضع اللغة العربية فوق الزمن متجاوزة بذلك التاريخ ، لأن نظامها الصوتي يتناغم مع الحركة الكونية ، لأن طابعها الحسّي الراسخ فيها يستمد إيقاعاته من مظاهر الطبيعة الحسية ، وهذا تأكيد على النظرية المعرفية القرآنية التي أكدت على هذه الحقيقة عند قوله تعالى :

« قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع و الأبصر والأفدة قليلا ما تشكرون » (سورة الملك) ، الآية (23)

ونرجو أن نكون قد وفقنا في تحديد الأبعاد المنهجية و المعرفية للنظرية الخليلية في الصوت العربي .

*